كان فتحا مبينا وعن موسى ابن عقبة أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحديبية
راجعا فقال رجل من أصحابه ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وصد هدينا فبلغ
النبي عليه السلام فقال بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتوح قد رضي المشركون أن يدفعوكم
عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان وقد رأوا منكم
ما كرهوا وعن الشعبي نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك
الغزوة ما لم يصب في غزوة أصاب أن بويع بيعة الرضوان وغفر له ما تقدم من
ذنبه وما تأخر وظهرت الروم على فارس وبلغ الهدي محله وأطعموا نخل خيبر وكان في
فتح الحديبية آية عظيمة وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول
الله صلى الله عليه وسلم ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وقيل
فجاشت بالماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد وقيل هو فتح خيبر وقيل فتح الروم وقيل
فتح الله له بالإسلام والنبوة والدعوة بالحجة والسيف ولا فتح أبين منه وأعظم
وهو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته متشعب منه وقيل
معناه قضينا لك قضاء بينا على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا
بالبيت من الفتاحة وهي الحكومة وكذا عن قتادة ما تقدم من ذنبك وما تأخر
يريد جميع ما فرط منك وعن مقاتل ما تقدم في الجاهلية وما بعدها وقيل ما تقدم من حديث مارية
وما تأخر من امرأة زيد نصرا عزيزا فيه عز ومنعة أو وصف بصفة المنصور
إسنادا مجازيا أو عزيزا صاحبه السكينة للسكون كالبهيتة للبهتان أي أنزل الله
في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح والأمن ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير
الأمن بعد الخوف والهدنة غب القتال فيزدادوا يقينا إلى يقينهم أو أنزل فيها السكون
إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع ليزدادوا إيمانا بالشرائع مقرونا بالـ
إيمانهم وهو التوحيد عن ابن عباس إن أول ما أتاهم النبي صلى الله عليه وسلم به التوحيد

فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة ثم الحج ثم الجهاد فازدادوا إيمانا إلى إيمانهم
أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانا إلى
إيمانهم وقيل أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزدادوا إيمانا ولله جنود السماوات
والأرض يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته ومن قضيته أن سكن قلوب
المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه
ويشكروها فيستحقوا الثواب فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم
من ذلك وكرهوه ونعم السوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده والصدق عن جودته
وصلاحه فقيل في المرضي الصالح من الأفعال فعل صدق وفي المسخوط الفاسد
منها فعل سوء ومعنى ظن السوء ظنهم أن الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين ولا يرجعهم
إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرا عليهم دائرة السوء أي ما يظنونه ويتربصونه
بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم والسوء الهلاك والدمار وقرئ دائرة السوء
بالفتح أي الدائرة التي يذمونها ويسخطونها فهي عندهم دائرة سوء وعند المؤمنين
دائرة صدق فإن قلت هل من فرق بين السوء والسوء قلت هما كالكره
والكره والضعف والضعف من ساء إلا أن المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد
ذمه من كل شيء وأما السوء بالضم فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير وأريد به الخير ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه
مذموما وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي
ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم فلأن الذي أصابهم مكروه وشدة فيصح أن يقع عليه
اسم السوء كقوله عز وجل إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة شاهدا تشهد على أمتك كقوله
ويكون الرسول عليكم شهيدا لتؤمنوا أنتم والناس وتعزروه وتوقروه بالنصرة
ويوقروه ويعظموه ويسبحوه من التسبيح أو من السبحة والضمائر لله عز وجل
والمراد بتعزير الله تعزير دينه ورسوله ومن فرق الضمائر فقد أبعد وقرئ

Copyright © King Saud University